

الوَحْدَةُ القَوْمِيَّةُ مِنْ خِلالِ اللُّغَةِ وَالفنِّ

دكتور عفيف بهنسي (ج.ع. ٣٠٤)

الأم التي انتشرت فيها اللغة العربية بعد الإسلام ،
فلقد اندمجت هذه الأم بالفكر العربي ، وبالقومية
العربية اندماجا كاملا أو جزئيا ، بحسب انتشار اللغة
العربية ذاتها .

وإذا كان اللفظ صيغة لحدس تبلور في كلمة ذات
اشتقاقات حسب الجنس والوظيفة والمدد ، فإن
الكتابة صيغة مطابقة لما تنقله حاسة النظر وهو الرسم
أولا ، ثم هي الهيروغليف وأخيرا هي مجموعة الحروف
المحورة عن الرسوم أو المتطورة عن أصل بدائي .
وسواء أكانت الكتابة رسما أو كانت رمزا بدائيا ، فإنها
أيضا تصدر عن الحدس الأولى لأشكال الأشياء والأفكار
بحسب صورتها ، ولكن هذا سيقودنا إلى القول ، أن
منشأ اللغة والفن واحد ، أي أن اللغة هي فن وأن الفن
هو لغة .

بين اللغة العربية والفن العربي

يرى كروتشه (1) أن فلسفة اللغة وفلسفة الفن
واحدة ذلك لأن كلا من الفن واللغة موضوعه التعبير ،
والتعبير الإنساني واحد وإن اختلفت وسائله . فجميعنا
شعراء ما دام الفن حدسا ، والحدس تعبيرا والتعبير
لغة ، واللغة بمعناها الواسع شعرا . فالشعر هو اللغة
الأصلية للجنس البشري . والواقع أن كلمة الشعر

لا شك أن الفكرة ميزة الوجود الإنساني ، بل هو
شرط هذا الوجود كما يقول ديكرت . ولكن هذا الفكر
لا يتحقق إلا عن طريق التعبير ، بواسطة رموز ، وأسهل
هذه الرموز وأقربها إلى سيطرة الفكر هو اللفظ . وقد
يكون هذا اللفظ حدسيا في نشأته مرتبطا بالطبيعة
والإنسان ارتباطا عضويا ، وقد يكون توليديا أو تركيبيا
مأخوذا عن مقياس أو وفقا لقاعدة . وجميع اللغات
تتكون عن السببين معا . وقد يكون سبب غالبا على
سبب ، كما هو الأمر في اللغة العربية التي تبدو حدسية
مرتبطة بالمعنى ارتباطا عضويا .

هذا الارتباط العضوي بين اللغة العربية وبين
الإنسان العربي يفسر جانباً هاماً من مفهوم القومية
العربية . فإذا كانت اللغة تعبر عن الحدوس الأولى
أزاء الوجود الإنساني والعالم الطبيعي ، فإن انتقال هذه
اللغة يعني انتقال هذه الحدوس والإحساسات الأولية .
ومن هنا كان انتشار اللغة العربية انتشاراً للقومية
العربية ذاتها ، أي أن اللغة العربية هي العنصر الأساسي
للقومية العربية ، واشتراك مجموعة من الشعوب بلغة
واحدة كاللغة العربية ، هو اشتراك قومي ، يقوم على
وحدة الحدوس الأولى أزاء مفهوم الإنسان والطبيعة ،
وبمعنى آخر ، يقوم على الوحدة العضوية بين اللغة
المشتركة وبين فكر موحد ، تقوم اللغة بدورها بتحديد
أطرافه القومي والإنساني . وإنما نرى ذلك واضحاً لدى

(1) كروتشه - علم الجمال . ترجمة نزيه الحكيم .

وحدة اللغة العربية عبر الزمان

بقي أن نتساءل هل وحدة اللغة العربية والفن العربي وهي المعبرة عن وحدة الشخصية العربية صحيحة عبر التاريخ ؟ وما هي عوامل تفكيك هذه الوحدة ؟

ما زالت اللغة العربية أقوى مظاهر السمات العربية وأقوى رابط يربط المحيط بالخليج ويوحد أفكار العرب وآمالهم ونضالهم ، وهي متينة غنية ذات تراث عريق لا ينضب . وعلى الرغم من محاولات التتريك في العهد العثماني ، وعلى الرغم من الظروف السياسية الصعبة التي مرت بها الأرض العربية في عهد الانتداب والاستعمار ، ومحاولة فرنسة الفكر واللسان في المغرب العربي ، ورغم التخلف الفكري والاجتماعي الذي أصاب الأمة العربية ، نرى أن اللغة العربية بقيت صامدة يدعمها القرآن الكريم ، والتراث الأدبي العربي وجهود المجامع ودور المجالات والمدارس العربية والحركات القومية التي اعطت اللغة أهمية أولى ليقظة الوجود العربي . وهكذا نرى اللغة العربية اليوم تعيش في ظروف مواتية وقد ابلت من أكثر أمراضها التي توارثتها عبر تقلبات التاريخ . وإنما في طريقها الآن للقضاء على اللهجات المحلية الركيكة ، وإن ارتفاع مستوى الثقافة وانتشار وسائل الإعلام كالمذياع والتلفاز ، سيكون له أثر كبير في تصفية اللهجات العامية التي تختزن الفكر العامي البدائي وتؤثر بذلك على حركة التقدم الحضاري والقومي .

وحدة الفن العربي

أما وحدة الفن العربي ، فإنها ماثلة باعتراف جميع المؤرخين ، وهي وحدة داخلية تكمن في شخصية الفن العربي ، ووحدة جغرافية . ونحن نستطيع أن نتميز هذه الوحدة الداخلية في أي عمل فني سواء أكان آداء أو سيفا أو رداء مطرزا أو فسقية أو مئذنة ، ولنسمع مايقوله جورج مارسيه عن هذه الوحدة (2) .

« لتخيل تجربة : لديك ساعة فراغ ، ولتجزية الوقت أو لمجرد التسلي باستعراض صور جميلة أمام عينيك ، تقوم بتصنع مجموعة صور لآثار ترجع إلى

بحسب اصلها اليوناني تعني الابداع بصورة عامة ، وأن جميع الفنون من عمارة وتصوير ونحت وموسيقى هي شعر كما يرى هيدغر(1)، الذي يضيف قائلا: « أن الشعر لغة ، لانهما كلاهما يسميان إلى التجلي والانتشار أو إلى العلائية ولأن اللغة هي المظهر الأسهل لخروج الإنسان إلى عالم العلائية ورفضه لكل امتزاج بالوجود المختلط المختفي . فإن الفن بهذا المعنى ، هو صورة من صور اللغة » . فالمعاني هي الأساس وهي تخرج إلى عالم العلائية عن طريق الرمز اللفظي أو التصويري ، عن طريق اللغة أو الفن . وبمعنى آخر ان افكارنا ومعاني الاشياء لا تتجلى فقط عن طريق اللغة ، بل عن طرق أخرى أهمها الفن ، لان ثمة اشياء وافكارا لا يمكن التعبير عنها باللغة بل عن طريق الفن ، فاللوحة أو اللحن لا يتقلان إلينا الشكل التقني وحسب ، بل الدلالات المشخصة أو المجردة لانكار واشياء مشخصة أو مجردة .

ومما لا شك فيه ان اللغة تعبر عن أكثر الاشياء تشخيصا وتحديدا ، أما الفن فإنه يعبر عن أكثر الاشياء تعميما واطلاقا ، ولهذا فإن اللغة تبقى مستقلة عن مضمونها . أما الفن فإنه يمتزج بمضمونه . أي ان الفن قد يكون أكثر وضوحا في نقل الشخصية القومية لان اللغة تبقى قاصرة عن التعبير الدقيق عن الفكر والوجدان القومي . أما الفن فإنه قادر ان يشخص مباشرة هذا الفكر وهذا الوجدان عن طريق رموزه التي تقرا بواسطة الفكر والوجدان .

هذه الصفة التاريخية والحضارية للغة والفن تجعلهما ابرز العناصر المقيمة للوجود القومي . فإذا تساءلنا عن أبعاد القومية العربية ، فإن الفن واللغة سيشاركان بدقة في تحديد هذه الأبعاد . فحيثما انتشرت اللغة العربية وحيثما انتشر الفن العربي وأصبح تقليدا وارثا ، تمتد القومية العربية .

ودلائل اللغة والفن في تحديد السمة القومية ، أقوى وأثبت من الدلائل السياسية . فالوحدة اللغوية والفنية هي طابع قومي ثابت فنى وجدان الأمة وشخصيتها ، ولا يمكن للتغييرات السياسية أن تؤثر على هذه الوحدة . بل ان هذه الوحدة هي الأساس الذي تقوم عليه الوحدات السياسية .

(1) Heidegger : « Chemins qui mènent nulle part », Gallimard, 1962.

(2) جورج مارسيه : الفن الاسلامي - ترجمه د. عفيف بهنسي - دمشق 1968 - المقدمة

مختلف الفنون . وتتالي التماثيل الاغريقية بعد اللوحات الجدارية المثلثة على المقابر المصرية والستر المطروزة اليابانية بعد النقوش النافرة في المعابد الهندوسية .

وفيما انت تقلب هذه الاوراق يقع بصرك بصورة متتابعة على لوحة جصية منحوتة فى احدى قاعات الحمراء . ثم على صفحة من قرآن كريم مزين من مصر، وتقع عينك اخيرا على زخرفة منقوشة على فسقية نحاسية فارسية ، وحتى لو لم يكن بمقدورك بعد ذلك ان تقرر البلد الذي ابدع فيه كل من هذه الاعمال ، فانك لا تميل ولو لبرهة وجيزة الى نسبة اي منها الى فن غريب عن البلاد الاسلامية » .

اما الوحدة الجغرافية فهي تتمثل فى وحدة الطراز على اختلاف الاقاليم والمناطق ، وعلى اختلاف السلطة الحكومية . ولكن هذا لم يمنع من ظهور فروق ابداعية ضمن نطاق هذه الوحدة تجعل الفن الاموي فى سورية وفى الاندلس مختلفا عن الفن الفاطمي فى مصر او العباسي فى بغداد . ان هذه الفروق دليل حيوية وتطور الفن العربي تطورا ابداعيا منسجما مع الظروف العقائدية والجغرافية التي ينشأ فيها ، ولكنه يبقى محافظا على وحدته الداخلية والقومية .

عوامل تفكك وحدة اللغة والفن

نموذ بعد الاطمئنان على وحدة اللغة والفن العربيين الى الاجابة عن الشق الثاني من السؤال وهو

ما هي عوامل تفكك هذه الوحدة ، اي وحدة اللغة العربية والفن العربي ؟

امام جميع الجهود القومية التي تبذل لتحقيق وحدة سياسية تقوم على الايمان بوحدة الوجود العربي تظهر نزعات شعبية او انفصالية او امية ، تنادي باسم الاصلاح او الثورة ، بتسليم مفاتيح اللغة والفن لأول ظافر فى معركة الابداع ، او لاقوى لغة تفرض نفسها فى عالم المبادلات العقائدية والثقافية ، او لاسهل لهجة تفيده فى تقوية الاستقلال الاقليمي ولقد تجرت بعض الدعوات الى تفضيل العامية على الفصحى او تفضيل الحرف اللاتيني على العربي ، او الى استيراد الاساليب الفنية الحديثة .

ان جميع العوامل التي تؤدي الى اضعاف وحدة اللغة والفن او القضاء عليها ، هي دعوة الى تصفية شكل البنية العضوية للقومية العربية . والبديل الصحيح لهذه الدعوات هو تعزيز اللغة العربية واستصدار المعاجم الدقيقة لمختلف النشاطات الفكرية الحديثة ، وتوحيد المصطلحات المستحدثة ، وتسهيل الكتابة المطبعية وتعميم دراسة الخط العربي الجميل . واعادة النظر فى اسرار الفن العربي والعمل على تطويره ضمن نطاق وحدة شخصية واصالتها . ان هذه الاعمال هي من صلب العمل الوجداني الذي يسمى لتحقيق اهداف راسخة ، فاية وحدة سياسية لا تقوم الا على وحدة فكرية وتعبيرية متينة .

هه